

الإِسْتِعْرَابُ خَادِمًا لِلإِسْتِعْمَارِ

أَوْ عَن كَلِيمِنْت سِيرْدِيرَا Clemente Cerdiera

(خَيْرُوَنَة ١٨٨٧ - نَيْس ١٩٤٢)

د. محمّد العمراني (*)

المُلخَص:

اشتهر «كليمنت سيرديرا» (clemente cerdeira) بنشاطه الكبير في أثناء عمله ضمن أجهزة السلطة الاستعمارية لبلده في منطقة الشمال المغربي، جامعاً بين المعرفة النظرية؛ متمثلة في إتقانه للغة العربية، ومعها انفتاحه على الثقافتين العربية والإسلامية، هذا مع أدوار ومسؤوليات عدّة اضطلع بها خلال وجوده في المغرب. وقد تنوّعت تلك المسؤوليات التي أوكلت للرجل وتنوّعت، مبدئياً في أدائها إخلاصاً وتفانياً منقطعي النظر لإدارة بلده، مستفيداً في ذلك ممّا أتاحت له معرفته بلغة أهل المغرب وثقافتهم ودينهم. لكن، وبالرغم من هذا، فإنّ حظوة الرجل عند أهل بلده من المؤرّخين لن تكون كبيرة، فقد جرى تغييبه عن هذا التاريخ، كما أنّ المؤسسة الاستعمارية الإسبانية الرسمية لم تسجّل لنا اسمه ضمن قائمة المنتسبين إليها. ويرجع هذا التهميش لموقفه إبان الحرب الأهلية الإسبانية، إذ كان ولاء «كليمنت سيرديرا» للجمهوريين الذين خسروا المعركة أمام الوطنيين بزعامة «فرانيسكو فرانكو» ممّا جلب عليه نقمة المنتصرين، مضطراً بذلك لقضاء بقية عمره في منفاه الاضطراري

*- أستاذ وباحث مغربي: مديرية التعليم طنجة أصيلة بالمغرب.

بعيداً عن أسرته. وقد تميّز سيرديرا في عمله ضمن السلطة الاستعمارية لبلده بكونه صاحب مشروع استعماري متكامل، متأثراً في ذلك بالمشروع الاستعماري الفرنسي القائم آنذاك في وسط المغرب. ولعلّ من أهمّ معالم ذلك المشروع عنايته الشديدة بالمسألة الاقتصادية، وقد تجلّى ذلك بوضوح في انكبابه على إعادة تنظيم مؤسسة الأوقاف (الأحباس) المغربية، باعتبارها مورداً هاماً كان سيمكن إدارة بلده من ضمان مداخيل ماليّة مهمّة.

الكلمات المفتاحية: الاستعمار، المغرب، إسبانيا، كليمنت سيرديرا، الترجمة، مؤسسة الأحباس.

على سبيل التقديم

تروم هذه المقالة تتبّع المسار الحياتي والمهني لكليمنت سيرديرا (Clemente Cerdiera)، بوصفه أحد رجال إسبانيا المخلصين خلال سنوات حمايتها الأولى في شمال المغرب. والحقّ أن هذا الرجل، وإن لم يكن من مسؤولي الصفّ الأوّل في الإدارة الإسبانية في هذه المنطقة، إلاّ أنّه أسدى خدمات كبيرة للمشروع الاستعماري لبلده، فقد تنوّعت المسؤوليات التي باشرها سيرديرا وتعدّدت، إذ جمع بين الترجمة والجاسوسية والعمل الدبلوماسي؛ مُحققاً في ذلك إخلاصاً ووفاء منقطع النظير للنظام الجمهوري في إسبانيا قبل سقوطه. لكن، وبالرغم من هذا التنوّع والتعدّد في الأدوار، يُسجّل الباحثون -باستغراب كبير- غياب الرجل عن المراجع التاريخية الإسبانية، ذلك أنّ الوطنيّين المنتصرين في الحرب الأهلية عملوا على إسقاط إسهاماته من التاريخ الرسمي، كما صادروا جزءاً كبيراً من أرشيفه.

وبالرغم من وقوفنا على بعض الإشارات إليه هنا وهناك، إلاّ أنّ صدور كتاب «كليمنت سيرديرا، ترجمان، ودبلوماسي، وجاسوس في خدمة الجمهورية الثانية»^[1] للباحث المغربي مُراد زروق كان بمثابة إعادة اكتشاف لهذه الشخصية، ولا أدلّ على

[1]- Mourad Zarrouk, Clemente Cerdeira. Intérprete, diplomático y espía al servicio de la Segunda República, Editorial Reus, 2017.

ذلك من الاحتفاء الكبير الذي حظي به هذا المؤلّف وصاحبه في إسبانيا^[١]. ولهذا، لم يكن -أمام أيّ دارس يتبع حياة ومسار هذه الشخصية- بدّ من العودة إلى هذا الكتاب، ومعه كتاب آخر للباحث نفسه بعنوان: «تراجمة إسبانيا في المغرب بين ١٨٦٠ و ١٩٣٩»^[٢].

ويأتي تميّز عمل الدكتور زروق في استناده إلى مئات الوثائق التاريخية المتعلقة بهذه الشخصية، والتي حصل عليها من أسرة سيرديرا المقيمة بمدينة سبته المحتلة، وكذا من الأرشيفين الرسميين لإسبانيا وفرنسا. وأنا إذ أسوق هذا الكلام أعلن استنادي في جزء مهمّ من هذه المقالة إلى عمل هذا الباحث الجادّ، فما هي أهمّ المحطّات في مساره العمليّ؟

العلاقات المغربيّة الإسبانيّة بين نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين

عاش المغرب ابتداء من النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وإلى حدود بداية القرن العشرين، اضطرابات كثيرة، وجاءت معركة إيسلي لتكشف للقوى المستعمرة المتربّصة حالة الضعف الشديد التي كانت تعرفها البلاد، ممّا جعل الأطماع الأوروبيّة تتزايد في بلادنا، وكان من أهمّها أطماع الجارة الشماليّة إسبانيا. وقد تكرّرت استفزازات البلد الأيبيري في المغرب غير مرّة، قبل أن يُعلن عليه الحرب سنة ١٨٥٩ فيما عرف بـ «حرب تطوان»^[٣].

وقد امتدّ احتلال الإسبان لمدينة تطوان سنتين، قبل أن تتدخل إنجلترا وتدفعهم إلى الانسحاب مقابل التوقيع على اتفاق ستشكّل بنوده مقدّمة لوضع قدم البلد الأيبيري في التراب المغربي، وفيه التزمت المملكة الشريفة بدفع مائة مليون فرنك

[١]- يستطيع الباحث المهتمّ العودة إلى أرشيف الصحف والمنابر الإعلاميّة الإسبانيّة الصادرة في زمن صدور الكتاب ليقف على التغطية الكبيرة التي خصّصت لهذا الحدث ساعتها.

[2]- Mourad Zarrouk, Los traductores de España en Marruecos (1859- 1939), Ediciones Bellaterra, Barcelona, 2009.

[٣]- تشتهر هذه الحرب لدى الإسبان بحرب إفريقيا، واستمرّت سنة واحدة (١٨٥٩-١٨٦٠). وقد أعلنوها على المغرب متذرعين بمناوشات حصلت بين سكّان قبيلة أنجرة المتاخمة لسبته مع السلطات الاستعماريّة هناك.

ذهبي كغرامة للإسبان^[١]، إلى جانب امتيازات أخرى. ولعجزه عن دفع الغرامة، اضطرت المغرب إلى الاقتراض من إنجلترا مقابل منح موظفيها امتياز الوجود بموانئه الشماليّة لاقطاع نصف مداخيل الجمر، وذلك استخلاصاً لقيمة المبلغ المستحق لها على المملكة الشريفة. وهكذا، تسلسلت الأحداث وصولاً إلى عقد مؤتمر دولي حول المغرب بمديرية سنة ١٨٨٠، والذي لم يعمل إلا على تأجيل مسألة استعمار بلدنا. وعادت القوى الأوروبيّة الاستعماريّة مرّة أخرى لتناقش المسألة المغربيّة، فاجتمعت سنة ١٩٠٤ لتبتّ في أمر حصصها وامتيازاتها في المغرب، «ولئن أرجئ موعد الاقتسام بثماني سنوات، فسبب ذلك من جهة غضب ألمانيا من إبرام تلك الصفقة... ومن جهة أخرى، رفض المغرب حكومة وشعباً للغزو الاستعماري ومقاومة ذلك بما جرى من عزل السلطان المولى عبد العزيز ومبايعة أخيه المولى عبد الحفيظ، ليتزعم الجهاد ضدّ أعداء الملة والدين»^[٢].

لكن، ومع بداية القرن العشرين، كان الأوروبيون قد اتخذوا لهم موطئ قدم في المغرب عبر سياسة الحماية التي انتهجوها، ولم يكن الأمر يحتاج إلى أكثر من التوقيع النهائي على وجودهم الرسمي ومنحه الشرعيّة؛ وهو ما تحقّق مع مؤتمر الجزيرة الخضراء الذي عقد سنة ١٩١٢ بمشاركة اثنتي عشرة دولة أوروبية. وفيه خرج المجتمعون بمقرّرات نصّت على وضع المغرب تحت السلطة المباشرة لكلّ من فرنسا وإسبانيا؛ ليفقد البلد سيادته على أراضيه، كما على قراره الاقتصادي.

ودون أن ينتظروا كثيراً، بادر الإسبان إلى تفعيل بنود الاتفاقية على الأرض في الشمال (المنطقة الخليفة)، فقاموا باحتلال المناطق المتاخمة لسبتة، كما أنزلوا قوّاتهم بكلّ من العرائش والقصر الكبير (أمر لم تستسغه فرنسا، وقبلته على مضض).

الترجمة سبيل إسبانيا لترسيخ أقدامها في المغرب

تفطن الإسبان إلى محوريّة القبيلة في التنظيم الاجتماعي والاقتصادي لسكان

[١]- عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، منشورات المركز الثقافي المغربي، الدار البيضاء، الطبعة الأولى ٢٠١٨، ص ٥٦١.

[٢]- إبراهيم بوطالب، تاريخ المغرب الحديث والمعاصر، دراسات وبحوث، الجزء الثاني، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانيّة بالرباط، الطبعة الأولى ٢٠١٤، ص ٦٢٢.

شمال المغرب الواقع تحت حمايتهم، ف «عملوا على تقسيم المنطقة إلى وحدات مشكّلة من القبائل، التي ستشكّل بدورها النواة السياسيّة والإداريّة الأساسيّة في العالم القروي».^[1] كما سعوا إلى الانفتاح على ثقافة المغاربة ولغتهم، سعياً لتيسير مهمّتهم وتحقيق النجاح لمشروعهم الاستعماري. لقد كان الشعار هو: (conocer antes de colonizar)، ومعناه: أن تعرف قبل أن تستعمر. وفي هذا السياق، يقول كليمنت سيرديرا: «... لا ينكر أحد أنّ قطب الرحي في إدارتنا الحمائيّة، بعد معرفتنا لذواتنا أوّلاً، هي تحقيق معرفتنا الأساسيّة، في «تفاصيلها الخاصّة والصغرى، وبالنظم الاجتماعيّة... لهؤلاء الذين تحمّلنا مسؤوليّة خدمتهم وحمايتهم...»^[2]؛ فالسيطرة على البلد المحتلّ واستغلاله لم تكن ممكنة من دون معرفة عميقة بلغته وثقافته ومعتقداته^[3].

ولتحقيق تلك المعرفة سعت سلطات الحماية في البلد الأيبيري في تكوين تراجمة يتقنون لغة أهل البلد؛ لتؤدّي هذه الفئة أدواراً حاسمة خلال فترة الحماية؛ سواء تعلق الأمر بسنوات التوتّر الأولى أو فيما تلاها فيما عرف بفترة «التهدئة» التي تلت القضاء على حركة محمّد بن عبد الكريم الخطابي، فقد كانت للتراجمة أدوار سياسيّة وإدارية مؤثرة^[4].

[1]- Javier Alvarado Planas y Juan Carlos Domínguez, La Administración del Protectorado Español en Marruecos, (una aproximación al protectorado Español por José Luis Villanova) Boletín Oficial del Estado. Centro de estudios políticos y constitucionales, Nafría, Madrid, España, 2014, p94.

[2]- Clemente Cerdeira, Traducciones y Conferencias, Ciudad autónoma de Ceuta, archivo central 2006, p194.

هذا الكتاب والمعنون بـ «ترجمات ومحاضرات» هو في أصله أربعة نصوص وترجمات لكليمنت سيرديرا طبعت مستقلّة، لكن حكومة مدينة سبتة قامت بجمعها بين دفتي هذا الكتاب. ويتعلق الأمر بـ «وجهة نظر عربيّة لحرب إفريقيا» وهو عبارة عن ترجمة لتأريخ الناصري لحرب تطوان (١٨٥٩-١٨٦٠) والوارد في كتابه «الاستقصا». أما الكتاب الثاني فهو عبارة عن ترجمة سيرديرا لمحاضرة للدبلوماسي والراهب وعالم الاجتماع الفرنسي المقيم بطنجة «ميشو بيلير» حول حرب الريف، وقد عنوانها بـ «ملاحظات حول حرب الريف». وجاء النص الثالث كذلك ترجمة لنفس المؤلف الفرنسي بعنوان «ملاحظات تاريخيّة حول الرباطات والزوايا الإسلاميّة المغربيّة». أما النصّ الثالث فهو محاضرة كان قد ألّفها سيرديرا أمام قادة وضباط من سلطات الحماية الإسبانيّة بالمغرب. وهي بعنوان «الأجاس».

[3]- Clemente Cerdeira, Intérprete, diplomático y espía al servicio de la Segunda República, p30.

[4]- نشير هنا إلى أهميّة كتاب الأستاذ زروق المشار إليه أعلاه والمعنون بـ «تراجمة إسبانيا في المغرب ما بين ١٨٥٩-١٩٣٩». ومعه كتاب آخر يتتبع تجربة المترجمين الإسبان في المغرب كذلك؛ لكنّه يغطّي فترة زمنيّة أطول وهو المعنون بـ «تراجمة الإدارة الإسبانيّة إلى اللغة العربيّة من الحماية إلى يومنا هذا» لصاحبه خوان بابلو أرياسطوريس.

-Los Traductores de Arabe del Estado Español: del Protectorado a Nuestros Días, Juan Pablo Arias, Ediciones Bellatera, Barcelona 2012.

وقبل أن توكل مهمّة الترجمة لمواطنيها، كانت إسبانيا تستعين -في مرحلة أولى- بترجمة مغاربة: مسلمين ويهوداً؛ هذا قبل أن يعمد ألفونسو ميري دي فال^[١]؛ المسؤول الإسباني الأوّل بالمغرب في بداية القرن العشرين إلى الاستغناء عنهم، وتعويضهم بترجمة مسيحيين عرب. لكنّ اعتماده على هؤلاء إنّما كان مرحلياً، في انتظار عودة بعثة الترجمة الإسبان من بيروت، إذ أرسلوا في بعثة دراسية لتعميق معرفتهم باللغة العربيّة والثقافتين العربيّة والإسلاميّة في مدرسة «الآباء المارونيّين».

ومن أشهر الأسماء التي تولّت الترجمة في المغرب في بداية القرن العشرين نذكر اسم خوان بيستيزوكاستيديكسون^[٢]، الذي تولّى عمليّة التفاوض مع الشيخ الريسوني برفقة ترجمان آخر هو ريخنالديو رويز أورساتي^[٣]، هذا قبل أن يلتحق بهما كليمتي سيرديرا الذي سيستأثر بملف التفاوض مع القائد الجبلي بعد موت زوكاستي^[٤].

بين كليمنت سيرديرا والمغرب (البدايات الأولى)

ولد كليمنت سيرديرا في مدينة خيرونا، الواقعة في شمال شرق إسبانيا، سنة ١٨٨٧؛ لكنّ مقام أسرته بهذه المدينة لم يطل، إذ سرعان ما غادرتها بعد أن ألحق

[١]- اشتهر ألفونسو ميري دي فال بتديّنه ومحافظته الشديدة، ومن مظاهر نزوعه ذلك، أنّه فرض على الموظّفين العاملين معه في الإدارة الإسبانيّة بطنجة الالتزام بأداء الشعائر الدينيّة المسيحيّة.

[٢]- خوان بيستي زوكاستي، إداري و مترجم إسباني شغل مناصب مهمّة ضمن الإدارة الاستعماريّة الإسبانيّة في شمال المغرب، خصوصاً في مرحلتها الأولى. فقد شغل منصب القنصل الإسباني في مدينة العرائش، كما تولّى مهام الترجمة والوساطة في مفاوضات بلده الطويلة مع القائد الجبلي المغربي: الشريف الريسوني. يقول عنه الأستاذ زروق في كتابه «ترجمة إسبانيا في المغرب (١٨٥٩-١٩٣٩)»، ص ١٧٢ «...منذ سنة ١٩١٢، وإلى غاية وفاته في مايو سنة ١٩٢٥، كان لزوكاستي دور مهمّ في العلاقات القائمة بين إسبانيا والريسوني. فقد كان هناك احترام كبير بين الرجلين...» وعن دور زوكاستي الترجمان بضيف الأستاذ زروق: «...كان وإلى غاية وفاته، واحداً من المفاوضين الرئيسيين مع الريسوني، إذ هو نتاج مؤسسات تكوين الترجمة الإسبانيّة. لكن، هناك مسألة مهمّة عن مفاوضات الماراتونيّة مع الريسوني. لقد كان دائماً بحاجة على مساعدة ترجمان آخر، هو ريخنالديو رويز أو كليمنت سيرديرا...» نفس المرجع، ص ١٧١.

[٣]- يورد الأستاذ زروق مُعرفاً بريخنالديو رويز أورساتي في مرجعه المذكور، ص ٨١ «... هو نتاج مسار مؤسّسة تكوين الترجمة التابعة لوزارة الخارجيّة الإسبانيّة... التحق للعمل بصفة مترجم أوّل في مشروع الدولة للترجمة. وهو يعدّ الممثل الأوّل لهذا المشروع، ورئيسه الإداري. وقد تولّى بذلك مسؤوليّة مشابهة لتلك التي تولّاها قبله أنيبال رينالدي في مسار ترجمة إسبانيا في الخارج...».

أما عن ولادته وانتمائه الأسري، فيقول عنه الأستاذ زروق (من نفس المرجع المذكور ونفس الصفحات): «... ولد ريخنالديو رويز في كنف عائلة طنجاوية، اشتهرت بتقاليدها الدبلوماسية والترجمة، وذلك في ١٨ أكتوبر سنة ١٨٧٣. أما عن وفاته فيذكر أنّها كانت في مدينة مدريد بتاريخ ١٣ شتنبر سنة ١٩٤٥.»

[4]- Zarrouk, Los traductores de España en Marruecos, p94.

ربها بالبعثة الإسبانية بطنجة. وقد وقف سيرديرا الأب -أثناء مزاولته لعمله بالمغرب- على الوضع الاعتباري الذي يحظى به التراجمة، فسعى في أن يجعل من ابنه كليمنت ترجماناً. وتفعيلاً لرغبته تلك، ألحقه بمدرسة قرآنية (المسيد) حيث تلقى الطفل بعضاً من دروسه الأولى في اللغة العربية والعلوم الشرعية بطنجة، وقد كان ينجز ذلك مساء بعد قضاائه فترة الصباح في مدرسته الأوروبية.

وفي سنة ١٩٠١، انتقل كليمنت -وهو شاب مراهق- إلى فاس مرافقاً أخاه الطبيب ألفونسو سيرديرا، «الطبيب الرئيس للقوات المسلحة الإسبانية والملحق بالقنصلية الإسبانية بهذه المدينة»^[١]. وشكّلت فاس بالنسبة إليه فرصة مهمة للانفتاح بشكل أكبر على الثقافة المغربية، وتعميق معرفته باللغة العربية والعلوم الشرعية. واتخذ الشاب الإسباني في أثناء دراسته بفاس زياً مغربياً واسماً عربياً هو الطالب عبد الرحمن سيرديرا الأندلسي، كما انتسب إلى مدرسة قرآنية «المسيد» في مرحلة أولى، قبل أن يلتحق بعد ذلك بجامعة القرويين. وحدث -وهو في هذه المدينة- أن دخل قصر السلطان مولاي عبد العزيز، وتحدّث معه رفقة أخيه الطبيب ألفونسو الذي تولّى مهمة معالجة السلطان.

وبغرض إنهاء دراسته للقانون الإسباني، سافر الشاب الإسباني إلى مدريد، ليحصل على الإجازة في جامعته، قبل أن يعود مرة أخرى إلى المغرب. وترشّح لدى عودته إلى طنجة سنة ١٩٠٥ لوظيفة «شاب متخصص في اللغات» في العصبة الإسبانية، لكنّه عرّج عائداً إلى فاس، مُنهيّاً بذلك دراسته التي بدأها بها في أثناء إقامته السابقة. وهناك مكث مدة امتدّت ما بين يوليوز ١٩٠٥ ودجنبر ١٩٠٦، مُتردّداً على مجالس الفقهاء، وموثّقاً صلواته بأهلها، لدرجة جعلت الكثيرين يعتقدونه مسلماً. وعن تجربته تلك يقول نائب القنصل الفرنسي بمدينة طنجة السيد مارتين: «هذا الإسباني المغربي النحيف والذي يرتدي الجلابة ويرتاد «مسيد القرويين» ليستظهر القرآن...»^[٢].

وبعد أن حصل الشاب قدراً لا بأس به من المعارف المتعلقة باللغة العربية والعلوم

[1]- Arias, Los Traductores de Arabe del Estado Español, p84.

[2]-Clemente Cerdeira, Intérprete, diplomático y espía al servicio de la Segunda República, P55.

الشرعية، ارتأت الإدارة الإسبانية بالمغرب إرساله إلى تونس (سنة ١٩٠٧)، ملحَقًا بقنصليّة بلاده، وهناك «سنحت له الفرصة ليقف على الكيفيّة التي يدير بها الفرنسيون حمايتهم في المغرب، إذ وجدهم يشتغلون وفق ضوابط وقواعد واضحة»^[١]. ومباشرة بعد عودته من تونس أتيحت له فرصة إظهار إمكانياته لأوّل مرة، وقد تحقّق له ذلك لدى مرافقته للوفد الإسباني الرسمي في رحلته إلى الدار البيضاء سنة ١٩٠٨، مشاركًا في المفاوضات التي أجرتها سلطات بلاده مع الجانب المغربي.

ونتيجة للمواهب التي أظهرها في هذه المحطّة، رُفّي سنة ١٩٠٩ إلى درجة شاب متخصص في اللغات (وهو ما يمثّل دبلوماسيًا في الترجمة)، وتحقّق له ذلك إثر نجاحه في مباراة امتحنه فيها أساتذة كبار. وبعد أن اعتمد للعمل رسميًا لدى إدارة بلاده، اختير ضمن بعثة دراسيّة إلى بيروت سنة ١٩١٠، وقد رافقه في رحلته تلك شابان آخران؛ هما فرانسيسكو ليமானانا وسانز تيبو. وقد أمضى الشبان الثلاثة هناك سنتين؛ انتسبوا فيها إلى مدرسة الحكمة المارونيّة، ونهلوا فيها من علوم اللغة العربيّة وآدابها^[٢]. وبعد محطّة بيروت، عاد سيرديرا إلى المغرب، ليُعيّن ترجمانًا لدى العصبة الإسبانيّة بطنجة. ولم يمض وقت طويل على تعيينه، حتّى انطلقت الحماية فعليًا، ليشكّل رفقة آخرين جزءًا من إدارتها. وقد عرفت المرحلة الأولى من الإشراف الإسباني المباشر على مناطق الشمال المغربي مقاومة شديدة من لدن القبائل، ليتوارى دور سيرديرا وباقي التراجمة أمثاله؛ لكنّ الأمور تغيّرت في المرحلة الثانية بعد أن اعتمدت إسبانيا خيار التهذئة^[٣] في علاقتها بأحمد الريسوني، قائد المقاومة في منطقة جباله^[٤].

[1]- Ibid, p30.

[٢]- استغل سيرديرا وجوده ببيروت ليؤلّف كتابين حول النحو العربي والنحو الإسباني هما: «نحو اللغة العربيّة الدارجة» (١٩١١)، ثمّ كتاب آخر بعنوان «النحو الإسباني بالعربيّة» (١٩١٢).

[3]- Gramática de árabeliteral. Primera parte. Beirut: Tip. Francesa/ Imprenta Católica, 1911.

Gramáticaespañola en idiomaárabe. Beirut: Imp. Católica, 1912.

تمّ اللجوء إلى التهذئة نتيجة عوامل، كان أهمّها ظروف الحرب العالميّة الأولى واستنزاف قوّة المقاومة الجبلية؛ ممّا جعل الطرفين يقبلان بالجلوس إلى طاولة المفاوضات. وعرفت جولات الحوار تلك الكثير من الشدّ والجذب، متأثرة في ذلك بالتغيرات التي كانت تعرفها الإدارة الإسبانيّة، مع سياسة تغيير الوجه المستمرّة فيها.

[٤]- لقد أسال هذا القائد الجبلي الكثير من المداد حوله، فقد تضاربت الآراء في الموقف من حركته بمنطقة جباله؛ بين من اعتبره وطنيًا مخلصًا للقضية المغربيّة، ومن اتهمه بالسعي وراء مصالحه وطموحاته الشخصية. لكنّه يظنّ من أكثر الشخصيات تأثيرًا في منطقة الحماية الإسبانيّة خلال مرحلتها الأولى. طبعًا مع القائد محمّد بن عبد الكريم الخطابي. ومن أهمّ الذين كتبوا عنه، نسجّل: ابن عزوز حكيم في مؤلّفه: «الشريف الريسوني والمقاومة المسلّحة في

وقبل أن يتولّى سيرديرا دور الوسيط والمترجم مع الشريف الريسوني، أنجز المهمة مجموعة من المترجمين قبله، أهمهم زوكاستي (zugasti). لكن، وبموت هذا الأخير حاز سيرديرا صفة المخاطب الأساسي والوحيد للشريف الريسوني، لدرجة جعلت المؤرخين يتحدثون عن نشوء علاقة صداقة متينة بينهما؛ ممّا جلب عليه نقمة وحقد الكثيرين من زملائه في الإدارة الإسبانية، وكان سبباً رئيساً في عرقلة الكثير من طموحاته الإدارية والدبلوماسية. وينقل لنا مراد رزوق عن أحد المسؤولين في إدارة الحماية الإسبانية، وهو يتحدث عن صداقة الريسوني بسيرديرا: «هي ذات دلالة كبيرة. الترجمان ينادي الشريف بأبي... وقد حدث أن قضى سيرديرا خمسة عشر يوماً ببوهاشم رفقة الشريف»^[1]. وزادت الشكوك حول ثيرديرا بعد أن رفضت بعض الجهات في سلطات الحماية تفعيل ما تمّ الاتفاق عليه مع القائد المغربي، في وقت كان الرجل يؤكّد على ضرورة الالتزام بما وعد به الريسوني.

وقد أدّت تلك المفاوضات الماراتونية إلى توقيع اتفاق تمّ بموجبه وقف إطلاق النار بين الطرفين، بعد أن وعدت إسبانيا القائد أحمد الريسوني بتحقيق مطالبه^[2]. لكنّ هذا الاتفاق لم يرق أطرافاً عدّة في الجانبين المغربي والإسباني؛ إذ اعترضت عليه بعض القبائل المغربية الجبلية، كما واجه معارضة قويّة من القادة العسكريين الإسبان؛ أهمهم الجنرال سلفستري^[3]، والذي واصل عملياته العسكرية ضدّ الريسوني؛ رافضاً الالتزام بتعيين الزعيم الجبلي خليفة على منطقة حمايتهم.

وتسببت الاعتراضات التي حدثت في زيادة التوتر بين الطرفين، لتوضع سلطات

شمال المغرب» ثمّ في كتابين آخرين هما «موقف الشريف الريسوني من الاستعمار الفرنسي» الصادر سنة ١٩٨١. وكتاب آخر هو «موقف الشريف الريسوني من الاستعمار الإسباني» الصادر سنة ٢٠٢٠ (تولّى ورثته نشره بعد وفاته).

[1]- Arias, Los Traductores de Arabedel Estado Español, p184.

[2]- محمّد علي داهش، المغرب في مواجهة إسبانيا (صفحات من الكفاح الوطني ضدّ الاستعمار ١٩٠٣-١٩٢٧) منشورات جامعة الموصل كلية الآداب، دار الكتب العلمية، بيروت ٢٠١٠، ص ٦٥-٦٦.

[3]- يعدّ العقيد مانويل فرنانديز سيلفستري (١٨٧١-١٩٢١) من أشهر القادة العسكريين الإسبان إبان الفترة الأولى للحماية الإسبانية في شمال المغرب. وقد اشتهر بحدّته ومعارضته للمدنيين في إدارتهم للمسألة المغربية. فقد كان يرفض خيار التفاوض مع القائد الريسوني الذي تبنته إسبانيا في سعيها لبسط سيطرتها على المناطق الجبلية، مؤثراً عوضاً عن ذلك العمل العسكري. أمّا عن نهايته فقد كانت مأساوية سنة ١٩٢١، إذ يقال إنّه انتحر بعد هزيمة الجيوش الإسبانية أمام قوآت المقاومة الريفية بزعامة محمّد بن عبد الكريم الخطابي، وذلك في معركة أنوال.

الحماية المدنية أمام خيارين: إما الريسوني وإما سيلفستري^[١]؛ وهو ما لم يكن الحسم فيه سهلاً، نظراً للحسابات الاستعمارية الإسبانية آنذاك. ولم تخف حالة التوتر إلا بعد نقل هذا الجنرال إلى منطقة الريف وتعيين قائد عسكري جديد بالمغرب؛ هو الجنرال جوردانا.

ويتحدث المؤرخون عن العداء الكبير الذي كان يُكته الجنرال سيلفستري ومعه قادة آخرون في المؤسسة العسكرية لسيرديرا، فقد حمّله بعضهم مسؤولية هزيمة الجيش الإسباني في معركة أنوال، بدعوى إضاعته الكثير من الوقت في المفاوضات مع الريسوني؛ وهو ما مكن عبد الكريم من الاستعداد الجيد للمعركة وهزيمتهم فيها.

سيرديرا في خدمة المشروع الاستعماري الإسباني

تغيّرت أوضاع سيرديرا بعد انتهاء حرب الريف، ودخول المناطق الجبلية والريفية فيما يعرف بـ «حالة التهدئة»، ليرقى إلى منصب مراقب مدني من الدرجة الأولى. وبعد تعيين كوميذ خوردانا مفوضاً سامياً في المغرب، تمت ترقيته مرة أخرى ليشغل منصب نائب مدير الأحوال المدنية للسكان المغاربة في القرى (los indigenas).

وشكّلت المسؤوليات الجديدة التي تولّاها تحقيقاً لبعض طموحاته السياسية، لكنّها لم تكن غاية ما يسعى إليه، فقد كان المسؤول الإسباني صاحب مشروع استعماري متكامل في منطقة الشمال المغربي. وفي هذا الإطار، وقناعة منه بأهمية تعلّم اللغة العربية والثقافة المغربية بالنسبة لإدارة بلاده، عمل على إنشاء الأكاديمية العربية البربرية بتطوان؛ «كمؤسسة تعليمية إسبانية تُعنى بتكوين مترجمين إسبان إلى اللغة العربية بمستوى عال».^[٢]

وقد كان سيرديرا -في مبادرته تلك- متأثراً بالتجربة الفرنسية في إنشائها للأكاديمية العليا للعلوم والمعرفة في الرباط. وعن تجربته في الرباط مع تلك الأكاديمية يقول

[1]- Fernando Caballero Echevarria, Intervencionismo español en Marruecos (18981928-): análisis de factores que confluyen en un desastremilitar, «Annual». Memoria para optar al grado de Doctor, Universidad Complutense de Madrid, Facultad de Geografía E Historia, Madrid, 2013; p273.

[2]- Arias, Lostraductores de Arabedl Estado Español, p86.

المسؤول الإسباني: «منذ مدة وأنا أمل الذهاب إلى تلك المنطقة، هناك سأجد آفاقاً لاهتماماتي ودراساتي حول هذا البلد، وذلك من خلال الوقوف على معلومات قيّمة ستكون -حين الحصول عليها- مفيدة لنا في منطقتنا»^[1].

ويؤكد لنا تصريحه هذا ما اشتهر به من حرص على استغلال كلّ مناسبة وتوظيفها لصالح وطنه ومشروعه الاستعماري. ولم تكن السلطات الفرنسية مطمئنة لوجوده في الرباط، لتعتمد إلى إبعاده عنها. فالرجل، وإن بدا في ظاهره معنياً بأمر هذه الأكاديمية، إلا أنه كان يتصيد الأخبار والمعلومات لنقلها إلى رؤسائه بتطوان. لقد وقف كليمنت سيرديرا على تميّز المشروع الاستعماري الفرنسي، إذ وجده مشروعاً منظماً، يطبعه التخطيط الجيد والعلمية^[2].

سيرديرا الجاسوس

أتقن كليمنت سيرديرا لعبة تغيير المواقع؛ يُقبل على ما يسند إليه من مهمّات بكلّ حماس وشغف، ويؤدّيها بكلّ إخلاص وتفان. وهكذا، قضى الكثير من أوقاته في الثلاثينيات خارج المغرب، متنقلاً بين الجزائر ومدريد، وخصوصاً القاهرة التي سافر إليها قبل اندلاع الحرب الأهلية ليتجسّس على الطلبة المغاربة هناك، حيث بداية تشكل الحركة الوطنية.

وغير هذه المهمة، تنوّعت مهمّات التجسّس الموكلة إليه وتعدّدت؛ فهو لم يكن يُغفل أي مستجدّات تطرأ على الساحة المغربية لينقلها إلى رؤسائه. ويسجّل له الباحثون في هذا السياق متابعته لتفاعل المغاربة في المناطق الخاضعة للحماية الإسبانية مع مبادرة قراءة «اللطف» في المساجد كردّ فعل على إصدار فرنسا للظهير البربري، ليرفع في ذلك تقريراً إلى رؤسائه. وفي هذا السياق، يُورد الأستاذ زروق من أرشيفه: «يتمّ التداول والحديث بين علماء تطوان حول الأحداث التي جرت مؤخراً

[1]- Zarrouk, Los traductoresde España en Marruecos, p200.

[2]- عمل سيرديرا في أثناء وجوده في الرباط مُجاوراً المعهد العالي المغربي على جمع الكثير من المعلومات عن هذه المؤسسة وطبيعة اشتغالها. ومن ثمّ قام بصياغتها في تقارير استخباراتية رفعها إلى رؤسائه في تطوان. ويبدو أن الفرنسيين كانوا يتابعون نشاطه ذلك بالرغم من مظاهر الحفاوة التي لقيها من بعضهم وإشراكه في بعض أنشطة المعهد. وقد تمثّل موقف فرنسا غير مطمئن له مرةً أخرى في رفضها تعيينه قنصلاً لديها في مدينة فاس، وذلك بعد مشورة للمستشرق وعالم الاجتماع ميشو بلير، الذي جاور سيرديرا بطنجة وخبر عن قرب كفاءته في الجاسوسية.

بكلّ من الرباط وسلا، حيث يتمّ تجميع شباب مسلمين من أبناء النخبة والأعيان من أجل إعلان غضبهم على السياسة الفرنسية المتبعة مع القبائل البربرية في منطقتها، عن طريق الجهر بالأدعية»^[1].

وهكذا، وبالنظر لطبيعة شخصيته الحذرة، والتي تنحو إلى التعامل مع الأحداث استباقياً، تفتن إلى ما يمكن أن تتطور إليه الأمور عقب إصدار فرنسا للظهير البربري، مُنبهاً سلطات إدارته في منطقة الشمال إلى ضرورة أخذ الحيطة والحذر من هذه المستجدات.

ولم يكن سيرديرا ليهدأ أو يستكين عند إنهائه لعمل ما، بل كان يبادر إلى الانقلاب على مسؤولية جديدة. ففي الثلاثينيات، تولّى مراقبة الجمعية الإسبانية الإسلامية (AHI) والتي تشكلت في مدريد من عضوية مجموعة من الأسماء العربية والإسبانية الوازنة، نذكر من أعضائها العرب: الأمير شكيب أرسلان، عبد السلام بنونة، عبد الخالق الطريس، أحمد حلمي باشا...

وقد أنشئت بمبادرة من الجمهورية الوليدة في إسبانيا، بغرض استغلال نقمة العرب والمسلمين على القوى الاستعمارية الأخرى، والاستفادة من ذلك سياسياً واقتصادياً. لكنّ المغاربة تعاملوا مع الأمر بشكل مختلف، إذ اعتبروها فرصة لإيصال صوتهم وتحقيق تطلّعات الشعب المغربي في نيل استقلاله. ولكن سيرديرا -الجاسوس الفطن والمترصد- انتبه إلى الأمر، ليعمل على دسّ مُخبرين له وسط المجتمعين، خصوصاً بعد أن سعى أعضاؤها إلى إنشاء فرع لها بتطوان، لتجهّض الفكرة في مهدها.

ومن أرسيفه دائماً ينقل لنا الأستاذ زروق، (وهو في ذلك يدافع عن مراقبته لأعضاء هذه الجمعية) «بمناسبة تأسيس الجمعية الإسبانية بمدريد، ومع مجيء النظام الجمهوري اعتقد سكان المناطق المغربية الخاضعة لحمايتنا بأن طموحاتهم ستتحقق، وإذ لم يحدث ذلك احتجوا بشدة على ممثلي إدارتنا، بل وأوصلوا احتجاجهم إلى الشرق الأوسط عن طريق الصحافة العربية... لقد ظنّ الخاضعون

[1]- Zarrouk, Los traductores de España en Marruecos, p206.

لحمايتنا بأن الجمعية ستكون أداة سياسية تتبني وتسهّل تحقيق مطالبهم»^[١].

وفي هذا السياق، سعى سيرديرا وإدارته الإسبانية إلى عزل المغرب عن محيطه العربي في الشرق الأوسط، فكُلّف بمهمة أخرى تتصل بـ «مراقبة التحركات التي يقوم بها أحد أعداء فرنسا، ويقصد بذلك الأمير شكيب أرسلان»^[٢].

ومن مهمّاته الجاسوسية الأخرى، تولّى المسؤول الإسباني مراقبة أنشطة الوطنيين المغاربة، خصوصاً فيما ينشرونه من مقالات وكتب؛ فانكبّ على قراءتها وترجمتها ومن ثمّ نقلها إلى رؤسائه. ويتوقّف الأستاذ زروق كذلك عند تجربته مع جريدة «الإصلاح» (تأسست سنة ١٩١٧)، إذ ضغط في اتجاه دفع عبد السلام بنونة وباقي هيئتها التحريرية لتقديم استقالتهم، لتُسلم مقاليد إدارتها إلى «مدير جديد والذي لم يكن آخر غير المترجم سيرديرا نفسه»^[٣]، فتحوّلت الجريدة معه إلى صوت يدافع عن الحماية وإدارتها.

سيرديرا الجمهوري

انطلقت الحرب الأهلية الإسبانية سنة ١٩٣٦، ولم يكن سيرديرا قادراً على فعل الكثير ليمنعها؛ فقد كانت معرفته بوضعية المؤسسة العسكرية محدودة، على اعتبار حالة العداء الذي كان يكتنّها له مجموعة من قادتها منذ فترة عمله السابقة (اشتغاله بالترجمة ووساطته مع الريسوني). لكنّ الرجل -وكعادته- لم يستسلم؛ فقد قام، وهو في طنجة، بتحريض قبائل «جبالة» بالشمال المغربي للثورة ضدّ الوطنيين الإسبان، ليؤضّع تحت المراقبة الدقيقة، ويجلب عليه غضب فرانكو شخصياً.

ويُعلّق المستعرب ميغيل أسين بلاسيوس عن دوره ذلك بقوله: «مترجم وضع، اسمه سيرديرا، والذي تحوم حول عمله ضمن إدارتنا الكثير من الشبهات، لم يتوان في أن يكون أداة لدفع القبائل ضدنا... عن طريق الإغداق عليهم بأموال طائلة»^[٤]. لكنّ

[1]- Zarrouk, Los traductoresde España en Marruecos, p204.

[2]- Arias, Los traductoresde Arabedel Estado Español, p86.

[3]- Zarrouk, Los traductoresde España en Marruecos, p215.

[4]- Ibid, p249.

محاولاته التحريضية لم يكتب لها النجاح، إذ اكتشف المتمردون رسائله المحرّضة إلى تلك القبائل، ليُعدموا رسله.

ولم يغفر الوطنيون لسيرديرا تحريضه ذاك، فعملوا على مهاجمته مع شركائه في مدينة طنجة. وقد قاموا بذلك رغم خضوع هذه المدينة المغربية لنظام الحكم الدولي؛ مستفيدين في ذلك من مساعدة بعض رجال الشرطة الإسبان العاملين ضمن الإدارة الدوليّة، والذين كانوا موالين للمتمردين. ومع مرور الوقت، زادت المضايقات والتهديدات التي تعرّض لها، خصوصاً مع تكرار عمليّات الاختطاف والقتل في حقّ الجمهوريين.

ولأنّه لم يعد مطمئنًا على حياته، غادر مدينة طنجة مُتوجّهاً صوب مدينة الدار البيضاء، هناك تمّ تعيينه قنصلاً لإسبانيا من قبل الجمهوريين. ومن هذه المدينة المغربية التابعة للحماية الفرنسيّة عمل على تعبئة القوميين المغاربة لمواجهة قوَّات فرانكو؛ لكنّ عمله هذا لم يرقّ الفرنسيين الذين رفضوا رفضاً قاطعاً ما كان يسعى إليه من تحقيق استقلال شمال المغرب عن إسبانيا. كما عانى هناك من مضايقات نائبه الأناركي لويس أغوادو، الذي أقنع رؤساءه بعزله.

وضاق الخناق على سيرديرا، ليضطرّ إلى مغادرة المغرب بشكل نهائي، وذلك بعد أن اقتربت قوَّات المتمردين الوطنيين الإسبان من حسم المعركة لصالحها، فسافر إلى إنجلترا، حيث عين قنصلاً بكلّ من نيوكاسل ولينفربول لمدة قصيرة، قبل أن يتمّ إنهاء مهمّته هناك بطلب من الحكومة البريطانيّة.

ومن إنجلترا سافر إلى فرنسا لتلقي العلاج. وبقي في العاصمة باريس تحت مراقبة صديقه الطبيب الجمهوري «غريغوريو مرانيون» قبل أن يغادرها نحو نيس عملاً بنصيحة أطبائه. ومن جنوب فرنسا واصل سعيه لدى السلطات الفرنسيّة لمنحه ترخيصاً لدخول منطقة حمايتها في المغرب حتّى يجتمع بأسرته مرّة أخرى؛ لكن طلبه قوبل بالرفض، لتنتهي حياته وحيداً بعد معاناة طويلة مع مرض القلب سنة ١٩٤٢.

بين سيرديرا ومؤسسة الأوقاف الإسلامية المغربية

يقترِب كليمنت سيرديرا -بما أنجزه من أبحاث ودراسات حول المغرب- من صفة المستعرب. فهو، وإن عدَّ واحداً من مئات أو آلاف موظفي إدارة الحماية الإسبانية لشمال المغرب، إلا أنه لم يكن من طينة الإداريين الكلاسيكيين، فقد اجتهد في إنجاز الكثير من الأبحاث المتعلقة بالمغرب وبلغته وثقافته ومؤسساته المختلفة^[١].

وقد مكّته إقامته في الرباط -خلال مجاورته للمعهد العالي للدراسات المغربية- من الوقوف على الكثير من المعلومات القيمة والمفيدة لإدارته في منطقة حمايتها بالشمال المغربي، «لينغمس سيرديرا بعمق في إحدى القضايا القانونية الإسلامية»^[٢].

وأبدى الرجل اهتماماً كبيراً بمؤسسة الأوقاف الإسلامية، فانكبَّ على دراستها وتتبع مسارها التاريخي وهيكلتها وطرق تدبير أملاكها، ليغدو في ظرف وجيز «أكثر الموظفين معرفة بمؤسسة الأحباس في المغرب»^[٣].

ومن أعماله القليلة التي وصلتنا، نقف على محاضرة له بعنوان «الأحباس» كان قد قدّمها سنة ١٩٢٨ أمام مجموعة من الضباط والقادة المراقبين التابعين لإدارة الحماية الإسبانية في الشمال المغربي^[٤]. وجاءت تلك المحاضرة مُقسّمة إلى أربعة محاور وخاتمة كالتالي:

[١]- يذكر الأستاذ زروق في كتابه سالف الذكر أنّ الكثير من أرشيف سيرديرا ونصوصه قد ضاع لدى مصادره من قبل الوطنيين عقب انتصارهم في الحرب الأهلية؛ ومنها دراسة ضخمة له عن القانون والتشريع الإسلاميين.

[2]- Zarrouk, Clemente Cerdeira. Intérprete, diplomático y espía al servicio de la Segunda República, P61.

[3]- Zarrouk, Clemente Cerdeira. Intérprete, diplomático y espía al servicio de la Segunda República, P60.

[٤]- هذه المحاضرة هي بعض من نصوص قليلة وصلتنا مطبوعة لسيرديرا، وقد أعيد طبعها (كما سبقت الإشارة إلى ذلك أعلاه) ضمن كتاب ضمّ نصوصاً أخرى له. والكتاب هو:

-Traducciones y Conferencias, Clemente Cerdeira, Ciudad autonoma de Ceuta, archivo central 2006.

- أصول مؤسسة الأحباس، خصائصها وأنواعها.

- إدارة هذه المؤسسة قبل الحماية.

- إدارتها في الحاضر والمستقبل.

- نظامها البيروقراطي.

وقد صدر محاضراته بالحديث عن نشأة مؤسسة الأحباس^[1] في الإسلام، مذكراً بغياب هذا النموذج المؤسسي عن مرحلة ما قبل الدعوة المحمدية، ومتوقفاً في ذلك مع أحاديث الرسول ﷺ مع بعض الصحابة كأبي طلحة (لعله يقصد الصحابي طلحة) وعمر بن الخطاب اللذين استشاراه في عمل يشفع لهما عند الله، ليشير عليهما الرسول بتوقيف بعض ممتلكاتهما في سبيل الله^[2].

ويتنقل بعد ذلك لشرح كلمة «حبوس»، مورداً معناها الإسباني (detener) ومعها مجموع الكلمات التي تتخذ الكلمة العربية «حبوس» أصلاً لها في القواميس الإسبانية^[3].

وحتى يؤكد سيرديرا كفاءته العلمية ومعرفته باللغة العربية والفقهاء الإسلامي، كشف عن خضوع مؤسسة الأحباس (الحبوس كما في نصه) في تنظيمها لقواعد الفقه المالكي المعمول بها في المغرب. معرفاً إيّاها كالاتي: «هي صدقة (عطاء) طوعي لغاية دينية أو إنسانية بغرض الاستفادة منها أو من ثمارها طيلة دوام المادة المحبسة (الموقوفة)... وهي موجهة إلى الفقراء وإلى القائمين على أمور المسلمين وإلى باقي المؤسسات الإسلامية»^[4].

ويعود مرة أخرى إلى الفقه المالكي ليتحدث عن شروط التحبوس (التوقيف)

[1]- يستعمل سيرديرا في محاضراته لفظة الحبوس فيما نستعمل في نصنا هذا لفظي الأحباس والأوقاف، معتبرين أنهما يؤديان المعنى نفسه.

[2]- Traducciones y Conferencias, P239.

[3]- Ibid, P240.

[4]- Traducciones y Conferencias, P240.

ويؤجزها كالاتي: «... يجب أن يكون الموقف والمستفيد مسلمين، أحراراً وفي حالة استطاعة...»^[1].

وبسبب غياب نص قرآني يتحدّث عن صيغة التوقيف، ذكر أنّ الفقهاء والمذاهب الإسلامية اجتهدوا في وضع ضوابط وقوانين تنظيمية لها، لنقف على نماذج مختلفة منها، باختلاف المذاهب والجغرافيا^[2].

وفي سياق التعريف بهذه المؤسسة، يُعرّج على أنواع الأحباس، فيذكر أنّها نوعان: عامّ وخاصّ؛ يتعلّق الأوّل بما يوضع رهن المصلحة العامة دون تخصيص للجهة المستفيدة، فيما تُحصّر الاستفادة في الثاني وتُخصّص، كأن تكون الأملاك الموقفة خاصّة بقبيلة أو زاوية أو غيرها^[3].

ولأنّ مصلحة بلده المستعمر وإدارته كانت هي محرّك الأساس في عمله هذا، يضيف بأنّ الأحباس العامة يقوم عليها نظار يعيّنون بظواهر خليفية أو وزارية، وبالتالي فهي تحت سلطتهم، فيما لا تخضع الأحباس الخاصة لهم، مغتناماً الفرصة ليقدم تصوّره لكيفية وضعها تحت السيطرة، كأن تستغل وفاة أحد النظار أو المقدمين لوضع اليد عليها^[4].

المحور الثاني من محاضراته خصّصه للحديث عن إدارة هذه المؤسسة في الماضي، أي في مرحلة ما قبل الحماية، ليعلن أنّ معرفة المغاربة بالأحباس ارتبطت بدخول الفاتحين الأوائل؛ لكنّه يضيف كلاماً يحمل بعضاً من ملامح الفكر الاستشراقي الذي لم نعهده لديه، فيعتبر أنّ النواة الأولى للأحباس في المغرب قد تشكّلت من الأملاك المصادرة من السكّان الأصليين الذين رفضوا اعتناق الإسلام^[5].

ومع مرور الزمن، تحمّس المغاربة للعمل الخيري أكثر، متطوعين بأموالهم

[1]- Traducciones y Conferencias, P240.

[2]- Ibid, P241.

[3]- Ibid, P241.

[4]- Ibid, P241.

[5]- Ibid, P243.

في سبيل الله. لتصل مؤسسة الأحباس أوج ازدهارها -حسب نصّه- في عهد الدولة الموحدية وقادتها الذين أولوها عناية كبيرة. لكنّ أياماً أسوأ ستمرّ بها هذه المؤسسة -في رأيه دائماً- وذلك في عهد الدولة المرينية، إذ تمّ إهمال الكثير من أملاكها لتضيع أو تتمّ حيازتها من لدن الناس.

ويضيف بأنّ حال هذه المؤسسة لم يتحسنّ في عهد ملوك الدولة العلوية الأوائل، إذ واصلت تراجعها بفعل الاستنزاف الكبير الذي عرفته ممتلكاتها عن طريق توظيفها في عمليّات الترضية التي كان يقوم بها الأمراء المتصارعون على السلطة، ليصل التراجع أقصاه في العشرين سنة السابقة على الحماية^[1].

ولعلّ إيراد شيرديرا لهذه المعطيات الأخيرة، قد أتى في إطار تهيئة مستمعيه لتقدير الخطوات الإصلاحية التي ستقدّم عليها سلطات الحماية فيما يخصّ مؤسسة «الأحباس»، والتي سيكون هو مهندسها.

وبالعودة إلى أسباب ضعف الموارد والتقهر الذي ميّز هذه المؤسسة في نهاية القرن التاسع عشر، فيرجعها للإهمال الذي تعرّضت له؛ والمتمثّل في تضييع الكثير من المستندات الخاصة بممتلكاتها، فضلاً عن سوء تدبير أمورها من لدن النظار القائمين عليها. فقد جرى تفويت الكثير من أملاكها لمستفيدين بملكيات مزورة وبتغطية من بعض القضاة، أو بتأجيرها مقابل أجور زهيدة غير متحركة. وغير هذه الأسباب، يتحدّث عن التراجع الكبير الذي عرفته عمليّات التوقيف في هذه المرحلة، فالمغاربة لم يعودوا كرماء كما كانوا من قبل^[2].

ولم يُغفل الإداري الإسباني في حديثه التذكير ببعض محاولات الإصلاح التي تمّ القيام بها سابقاً، خصوصاً ما أنجزه السلطان مولاي عبد الرحمن، الذي عمل على تنظيم وضبط عمل نظار تلك المؤسسة، مع الاستغناء عن الكثير منهم، ووضع آخرين تحت المراقبة^[3].

[1]- Traducciones y Conferencias, P244.

[2]- Ibid, p244- 245.

[3]- Ibid, 246.

ولم يكن سيرديرا يكتفي -أثناء عرضه المفصل- بالوقوف عند المشكلات التي تعرفها مؤسسة الأحباس فقط، بل كان يعمد -من حين إلى آخر- إلى اقتراح بعض الحلول، والتي يراها كفيلة بالرفع من مداخيلها؛ كأن تتمّ الزيادة في الإيجارات، أو القيام بإصلاح بعض عقاراتها المتضررة في عمرانها.

أمّا عن حل مشكلات أراضي الأحباس في البوادي، فيقترح إعادة تنظيم المسؤوليات وهيكلتها بشكل جديد؛ كأن يتمّ تعيين ناظر على كلّ قبيلة، يتولّى هو تعيين مقدّمين أو نظار لكلّ مسجد أو ضريح تتبع له أملاك وقفية، على أن يشرف على عمل هؤلاء قضاة يساعدون نظار القبائل في عملهم.

وكمعايير لاختيار أولئك النظار، يقترح أن يكونوا من أهل القبيلة أو من شخصيات تنتمي إلى مناطق مجاورة تحظى بثقة القبيلة التي يعملون بها ومشهود لهم بالنزاهة والشرف. ولضبط عملية تحصيل الموارد، يرى أن يتم ذلك تحت مسؤولية المفتشين المحليين الذين سيكونون مطالبين بالتوجّه بالأموال صوب المديرية العامة، على أن تفتح حسابات مستقلة خاصة بكلّ منطقة يوضع فيها ما يُحصل من أموال^[1].

وكخطوة إصلاحية أخرى مهمّة، يقترح القيام بجرد أملاك الأحباس وحصرها، وهو ما تمّ إنجاز الكثير منه من في ظلّ إدارة سلطات الحماية بتاريخ ١٩٢٦. كما يتحدّث عن ضرورة توثيق الأراضي بالوسط القروي عن طريق استخراج ملكيات لها، مع وضع حدود واضحة، وهو ما ينسحب على المزارع المختلفة.

المحور الثالث في عرضه خصّصه لواقع إدارة الأحباس في الحاضر والمستقبل. وقد اعتبر فيه أنّ هذه المؤسسة ما زالت تخضع في شكل إدارتها إلى هيكل قديمة تجاوزها الزمن، إذ يتولّى الأمر فيها إداريون أو مجالس جماعية تضمّ ممثلين عن المنطقة التي توجد بها الأملاك. ويتوقّف هنا ليتحدّث عن محاولات الإدارة العسكرية للحماية على تجاوز هذا الاضطراب في الإدارة عبر إعادة تنظيمها. وقد مثل لإصلاحات إدارته بما جرى في أوقاف ملبيلية، مستغلاً الفرصة لعرض أفكاره الإصلاحية، والتي بعث بها إلى السلطات المختصة بتاريخ ١٠ أبريل ١٩٢٨. ويختم

[1]- Traducciones y Conferencias, 247- 246 .

كلامه مُعلناً أن تدخل سلطات الحماية الإسبانية في هذه المؤسسة أنقذها وأملاكها من التلاشي والضياع^[1].

خاتمة وتركيب

وبعد هذه الجولة مع حياة ومسؤوليات كليمنت سيرديرا، أخلص في النهاية إلى القول بتميز هذه الشخصية وفرادتها، إذ لا نكاد نقف لها على مثل في تاريخ الحماية الإسبانية في المغرب. لقد زواج هذا المسؤول الإسباني بين المعرفة النظرية والممارسة على الأرض، وذلك بالنظر إلى عمله ضمن سلطات الحماية؛ مستثمراً في ذلك معارفه باللغة العربية، والثقافتين العربية والإسلامية في خدمة مشروع بلده الاستعماري. لكن، وبالرغم من كل الإخلاص والتفاني اللذين أظهرهما في خدمة وطنه، يتفاجأ المتتبع لسيرته بالتجاهل والنكران الكبيرين اللذين قُوبِلَ بهما من طرف المسؤولين الإسبان، لدرجة جعلت البعض يصفه بالرجل «الملعون» (maldito). ونعتقد أنّ المغرب كان محظوظاً حينما لم يلتفت كثيراً إلى آرائه ونصائحه لسلطات بلاده في إدارتها الاستعمارية.

[1]- Traducciones y Conferencias, p247.

لائحة المصادر المراجع

١. عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، منشورات المركز الثقافي المغربي، الدار البيضاء، الطبعة الأولى ٢٠١٨.
٢. إبراهيم بوطالب، تاريخ المغرب الحديث والمعاصر، دراسات وبحوث، الجزء الثاني، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط. الطبعة الأولى ٢٠١٤.
٣. محمّد علي داهش، المغرب في مواجهة إسبانيا (صفحات من الكفاح الوطني ضدّ الاستعمار ١٩٠٣-١٩٢٧) منشورات جامعة الموصل كلية الآداب، دار الكتب العلميّة، بيروت ٢٠١٠.

لائحة المراجع الأجنبية

1. Mourad Zarrouk, Clemente Cerdeira. Intérprete, diplomático y espía al servicio de la Segunda República, Editorial Reus, 2017
2. Mourad Zarrouk, Los traductores de España en Marruecos (1859-1939), Ediciones Bellaterra, Barcelona, 2009.
3. Javier Alvarado Planas y Juan Carlos Domínguez, La Administración del Protectorado Español en Marruecos (una aproximación al protectorado Español por Jose Luis Villanova) Boletín Oficial del Estado. Centro de estudios políticos y constitucionales, Nafria, Madrid, España, 2014.
4. Clemente Cerdeira, Traducciones y Conferencias, Ciudad autónoma de Ceuta, archivo central 2006.
5. Juan Pablo Arias, Los Traductores de Arabe del Estado Español, del Protectorado a Nuestros Dias, Ediciones Bellatera, Barcelona 2012.

6. Fernando Caballero Echevarria, Intervencionismo español en Marruecos (1898-1928): análisis de factores que confluyen en un desastremilitar, «Annual». Memoria para optar al grado de Doctor, Universidad Complutense de Madrid, Facultad de Geografía E Historia, Madrid, 2013.